مقدمة عامة

[صحابة الرسول ﷺ فى أغلبيتهم من المسيحيين واليهود ـ الهجرة الأولى إلى أرض مسيحية ـ سرجيس ـ تماضر النصرانية ـ الإصبع الكلبى النصرانى ابن أنس الراهب ـ الهجرة إلى يهود ـ الإسلام دين المستقبل ـ الإسلام عالمى النزعة ـ رأى منتجمرى وات ـ رأى وِل ديورانت ـ كل الأجناس حول الرسول ـ أم أيمن ـ بلال ـ أسامة الحِب ـ عمار بن ياسر ـ صالح شقران ـ سلمى القابلة ـ صهيب الرومى ـ الأزرق الرومى ـ أبو كبشة الفارسى ـ أفكار من المسيحية واليهودية ترددت عند موت النبى ﷺ ـ أبوبكر يصحح ـ عادات إفريقية ـ مارية ـ سيرين ـ مينا ـ مابور ـ بعد جديد للأوثان ـ حقيقة حروب المرتدين]

لسبب غير واضح بشكلٍ كاف جرى التركيز عند كتابة السيرة النبوية، وحركة الهداية الإسلاميَّة على تحوُّل عبَّاد اللات والعزى وغيرهما من الأصنام إلى الإسلام، وربما كان هذا لرغبة لا شعوريَّة لدى الكتَّاب المسلمين لتبيان الفارق الحاد والتباين الصارخ بين العقائد التى كانت سائدة قبل الإسلام، وتلك التى سادت بعده، ليكون التقابل صارخًا بين النّور والظلام أو بين الهداية والضلال.

ولا شكَّ أنَّ الإسلام كان نوراً غَمَر العالم، لكن هذا لا يمنع من تقرير الحقيقة الواضحة تمام الوضوح وهى أنَّ معظم الذين تحولوا للإسلام ورحَّبوا به منذ البداية الباكرة للإسلام أى على عهد النبى ﷺ كانوا يهوداً ونصارى أو فيهم كثير من اليهودية والنصرانية، ومن هنا فقد كان عدد كبير من صحابة النبى ﷺ من اليهود والمسيحيين، ولعلَّ المثل الصارخ الذى يؤيد هذا أنَّ اليمن التى تمركزت فيها اليهوديَّة والمسيحية دخلت الإسلام دون مشاكل على عهد النبى ﷺ ودون غزوات بالمعنى الحرفى للكلمة.

هذه الحقائق التى تبدو غريبةً، واضحةٌ تمام الوضوح فى أوَّل سيرتين وصلتا إلينا عن حياة النبى ﷺ وعَصْر النبوَّة، ونعنى بهما «السيرة النبوية لابن إسحاق» (ت١٥٢هـ) والتى هذَّبها ابن هشام، و«السيرة النبوية» التى كتبها ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) فى الأجزاء الأولى من كتابه المهم «الطبقات الكبرى». وهما كتابان مُتداولان من اليسير أن يراجعهما القارئ العام والمتخصص على حد سواء، وقد عرضنا ما أورداه من أخبار ببساطة ووضوح ليُطالعها القارئ المسلم والمسيحى واليهودى على حد سواء. ونظراً لدقة الأفكار الواردة فى هذه السياقات وعدم تداولها فقد أوردنا مصدر الأخبار التاريخية التى تؤيِّدها فى سياق الكتاب نفسه، بمعنى أننا أوردنا اسم المرجع التراثى الأصلى، ورقم الصفحة بين قوسين داخل سياق كتابنا نفسه، وليس فى قائمة مراجع منفصلة فى آخر الكتاب مُقتدين بذلك بالطريقة المتَّبعة فى بعض الدوريات العلمية المحكمة التى تتناول موضوعات أكاديمية دقيقة، ومُقتدين أيضًا بكتب التراث التى تورد مصدر الخبر أو المعلومة فى السياق نفسه.

فى رحاب المسيحية واليهودية ـ إذن ـ ترعرع الإسلام ووجد الحماية، منذ البداية الأولى وعلى عهد نبيه ﷺ. لقد ظهر الإسلام مُصدّقًا لما بين أيديهم من التوراة والأناجيل ومهيمنًا عليها. لقد ظهر ليُكمل لا ليهدم وظهر ليُصحح ما أفسده تطاول العهد، وما لحق بها من تجاوزات وأباطيل، ليعيدها إلى الأصول الأولى ممثلة فى دين إبراهيم عليه السَّلام. ألم تكن هجرة المسلمين الأولى بعد بعثة النبى ﷺ بعامين إلى ديار مسيحية هى الحبشة ؟! ألم يُزمع حتى أبوبكر الصِّديق نفسه الهجرةَ إلى الحبشة ؟! ألم يتأخر عدد من المسلمين ـ منهم جعفر بن أبى طالب ـ فى الرجوع من الحبشة حتى

بعد هجرة النبى ﷺ للمدينة المنوَّرة بل حتى سنة ٧هـ ؟ وأسلم عدد كبير من ا لنصارى العرب وصاروا صحابة ذكرت لنا كتب التراث بعضهم، نذكر منهم لدواعى الإيجاز ثلاثة :

ـ **الصحابى الإصبع بن عمرو الكلبى**، كان نصرانيّا فأسلم، وتزوج عبد الرحمن بن عوف ابنته تماضر (النصرانية) التى لم تجد صعوبةً فى التحوّل للإسلام [ابن سعد، الطبقات الكبرى، مج١، ص٨٠٤].

ـ **والصحابى رافع بن أبى رافع الطائى (رافع بن عميرة)** كان نصرانيّا اسمه سرْجيس وقد حضر غزو عمرو بن العاص لذات السلاسل وكان سرْجيس رضي الله عنه صديقًا لأبى بكر الصِّديق. [ابن هشام، السيرة النبوية، ج٦، ص٣٥]

ـ **كان أبو قيس بن أبى أنس (من بنى عدى بن النجار)** قد ترهْبن قبل الإسلام... واغتسل من الجنابة وهمَّ بالنصرانية ثم قال أعبُد رب إبراهيم، لذلك لم يجد صعوبة فى دخول الإسلام حين قدم النبى ﷺ للمدينة [ابن هشام، ج٢، ص٤٣].

ثم ألم تكن الهجرة الثانية، التى كان فيها النبى ﷺ إلى المدينة حيث (موال يهود) أو حلفاء يهود، وحيث يهود أنفسهم ؟ ومن هؤلاء كان الأنصار الذين نصروا الله ورسوله. ومن هؤلاء أيضًا كان من عادى الله ورسوله.

وكما بدأ الإسلام على عهد النبى ﷺ دينًا عالميّا لكلِّ أصحاب الديانات السابقة عليه، خاصة المسيحية واليهودية، فإنَّ أفكاره ظلَّت تتغلغل فاعلةً مؤثرة فى المسيحيين واليهود حتَّى يومنا هذا.

يقول المستشرق منتجمرى وات فى كتابه «الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر» [نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة الألف كتاب الثانى، وهو من ترجمة ودراسة مؤلِّف الكتاب الذى بين يدى القارئ]: إنَّ الإسلام ـ بشكل أو بآخر ـ هو دين المستقبل، سواء كان هذا بشكل مباشر، أو بإجراء تحوُّلات فى اليهودية والمسيحية تجعلهما قريبتين ـ إن لم تكونا متطابقتين ـ مع الإسلام، وإنه لم يعد هناك كبير شك لدى بعض المسيحيين فى أنَّ محمدًا نبى ـ بشكل أو بآخر ـ أرسله الله لإبلاغ كلمته ـ بطريقة خاصة ـ لشعوب كان يصعب عليها فهم كلمة الله إلاَّ بطريقته ـ أى طريقة محمد ﷺ ـ، وإنَّ الشريعة

الإسلامية فى مجملها لا تُناقض ما سبقتها من شرائع يهودية. وقد اتَّهمه زملاؤه بأنه خرج عن المسيحية باعترافه بنبوَّة محمد ﷺ، فارتعد الرجلُ وقال: إنَّه مسيحى رغم إيمانه بأنّ محمدًا نبى. [راجع المقدمة فى الكتاب آنف الذكر].

ونجد مؤلّفًا شهيرًا آخر هو ول ديورانت يذكر بوضوح كامل أنَّ «فكرة التثليث» لم تعُد راسخةً فى الضَّمير الأوروبِى، وإنما اهتزّت اهتزازًا شديدًا [قصة الحضارة ـ عصر نابليون. نشر المجمع الثقافى فى أبوظبى، المجلد الأول، والكتاب ترجمه وقدَّم له د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ]، بل إن ول ديورانت يرى أنَّ الثورة الفرنسية هى فى الأساس حركة إصلاح دينى وأنها استبدلت بالثالوث (الأب والابن والروح القدس) ثالوثًا آخر هو (حرية وإخاء ومساواة). ويذكر تفاصيل مُرْعبة عن إهانة الثوار للكتاب المقدس المسيحى، لكن الثورة ـ على أيَّة حال ـ اكتشفت بعد ذلك أنَّه يستحيل ضبط الجماهير دون دين، فكان إحياء الكاثوليكية، لكن على أسس أقل تطرفًا وأكثر اعتدالاً.

والمستشرق چورچ بوش (القرن ١٩)، يؤكِّد أنَّ محمدًا ﷺ هو رسول من عند الله، وأنّ الله ـ سبحانه ـ أرسله سَوْطَ عذاب يَهْوِى به على الكنائس الضَّالة، لكنه ـ على أية حال ـ يعود فيقول: إن المسيحيين إذا ما أصلحوا مسيحيتهم ارتفع عنهم سَوْط العذاب هذا، فالرجل يتوقع أن يعود المسلمون للمسيحية فى مطلع الألفية. [چورچ بوش، محمد مؤسس الدين الإسلامى، القاهرة، الرياض، دار المريخ، ٢٠٠٤م ـ ط٥].

الإسلام إذن هو دين المستقبل لأنَّه يضم كلَّ ما هو خير فى الديانتين السَّابقتين له. وكما شهد المجتمع المحيط بنبى الإسلام ﷺ منذ بدايته جماعة (صحابة) يهودًا ومسيحيين، فقد كان هذا المجتمع يمثِّل أيضًا كلَّ أجناس البشر، فقد نشأ النَّبىُّ ﷺ بعد وفاة أمه فى أحضان إفريقية حنون، كانت له أمّا بعد أمِّه. لقد رَعَتْه هذه الإفريقية واهتمت به، فكان ﷺ يُكن لها حبّا شديدًا، بل لقد امتد هذا الحب إلى بنيها الذين جَنَحوا إلى لَوْنها فكانوا سودًا مثل أمِّهم، لكن هذا لم يمنع النبى ﷺ من تنصيبهم أمراء للجيوش، وتبويئهم مكانًا ساميًا. إنَّها «بَرَكة» التى عرفت بعد ذلك بأم أيمن.

ويبدو أنَّ أم أيمن لم تصل للحجاز ـ بشكل أو بآخر ـ إلاَّ وهى كبيرة السن نسبيًا أو بتعبير آخر إلأَّبعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة، لأنَّ لسانها لم يكن فصيحًا عندما تنطق العربية، فقد كانت لا تُجيد نطق «حرف العين»؛ إذ كانت تقلبه «ألفًا»، كما كانت لا

تجيد نطق «حرف الثاء»؛ إذ كانت تقلبه «سينًا» . . . وظل هذا حالها حتى آخر عمرها. وليس فى «السيرة النبوية» التى وصفها ابن إسحاق وهذبها ابن هشام، ولا فى «الطبقات الكبرى» لابن سعد ما يُفيد أنها حبشيّة، «فبركة» إذن إفريقية سوداء وصلت إلى «مكة» بعد تجاوزها سنَّ الطفولة بزمان. يروى لنا ابن سعد هذه الأخبار التى تؤكد ما ذهبنا إليه:

ـ «كانت أم أيمن لا تنطق حرف العين»، وتحيله إلى «ألف» فتقول: أليكم السلام، وهى تقصد: عليكم السلام، أو السلام أليكم، وهى تقصد: السلام عليكم، فسمح لها النبى ﷺ أن تكتفى بكلمة «السلام». [الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٦٧ـ ١٦٨].

ـ كانت أم أيمن لا تجيد أيضًا نطق «حرف الثاء»، فقالت يوم حنين: سَبَّت الله أقدامكم وهى تقصد ثبَّت الله أقدامكم، فقال لها النبى ﷺ: اسكُتى يا أم أيمن فإنَّك عسراء اللِّسان. [الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٦٨].

وكانت أم أيمن تعتنى بالنبى وتخدمه، فقال النبى ﷺ: من سرَّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنّة فليتزوج أم أيمن، فتزوجها زيد بن حارثة فولدت له أسامة، وحضرت أم أيمن غزوة أحد فكانت تسقى العطشى وتداوى الجرحى. [الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٦٨]. وأم أيمن(اسمها بركة) مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، كان النبى ﷺ قد ورثها من أبيه. عندما تزوّج النبى ﷺ من خديجة بنت خويلد أعْتَقَها فتزوَّجها عبيد بن زيد. . . بن الخزرج فولدت له أيمن. ولما مات زَوْجُها أعتق النبى ﷺ زيد بن حارثة بن شراحبيل وزوَّجه أم أيمن بعد النبوة فولدت له أسامة بن زيد.

وكان النبى ﷺ يناديها: يا أمَّه (يا أمى) وكان إذا نظر إليها قال: هذه بقية أهل بيتى. [الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٦٧]

وكان أسامة الحب بن زيد بن حارثة من زوجته بركة (أم أيمن) قد وُلد بمكة ونشأ فيها حتى أدرك ولَم يعرف إلا الإسلام ولم يدن بغيره، وهاجر مع النبى ﷺ إلى المدينة وكان النبى يحبه حبّا شديدًا، وكان عنده كبعض أهله. وكان أسامة أسود أفطس الأنف لكن هذا لم يَعِبْه عند النبى ﷺ. فقد أخَّر النبى ﷺ الإفاضة من عرفة من

أجل أسامة بن زيد ينتظره، فجاء غلام أفطس أسود (أى أسامة) فقال أهل اليمن: إنّما حُبِسنا من أجل هذا. [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٤٤].

ودخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح ورديفه أسامة بن زيد فأناخ فى ظل الكعبة. [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٤٥].

وبعث النبى ﷺ سريّة فيها أبوبكر وعمر، فاستعمل عليهم أسامة بن زيد، وقد كانوا طعنوا فيه أى فى صغر سنّه، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال: «إنَّ الناس قد طعنوا فى إمارة أسامة بن زيد، وقد كانوا طعنوا فى إمارة أبيه من قبله، وإنهما لخليقان لها، أو كانا خليقين لذلك، فإنّه لمن أحب الناس إلىَّ إلاَّ فاطمة، فأوصيكم بأسامة خيراً». [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٤٦].

ومرض رسول الله ﷺ فجعل يقول فى مرضه: أنفذوا جيش أسامة. أنفذوا جيش أسامة. وخرج بالفعل جيش أسامة حتى بلغ الجُرْف، فأرسلت إليه امرأته فاطمة بنت قيس، فقالت له: لا تعْجَل فإنَّ رسول الله ﷺ ثَقيل (اشتد عليه المرض) فلم يبرح حتى مات رسول الله ﷺ، فلمّا قُبض رجع إلى أبى بكر فقال له: إنَّ رسول الله ﷺ بعثنى وأنا على غير حالكم هذه وأنا أتخوَّف أن تكفر العرب فإن كفرت كانوا أول من يُقاتَل (بضم الياء) وإن لم تكفر مضيتُ فإنَّ معى سروات الناس وخيارهم. فخطب أبو بكر الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «والله لأن تخطَّفنى الطير أحبّ إلىَّ من أن أبدأ بشىء قبل أمر رسول الله ﷺ» فبعثه أبو بكر. [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٤٧].

وكان أسامة برّا بأمه، فعندما بلغت النخلة على عهد عثمان بن عفان ألف درهم عمد أسامة إلى نخلة فنقرها وأخرج جُمَّارها فأطعمها أمَّه، فقالوا له: ما يحملك على هذا وأنتَ ترى النخلة قد بلغت ألف درهم؟ فقال: إنَّ أمّى« سألتنيه ولا تسألنى شيئًا أقدر عليه إلا أعطيتها. [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٤٩].

وعُرف عن أسامة التقوى والتقشّف فقد كان صوَّامًا قوَّامًا، يروى لنا ابن سعد: كان أسامة يركب إلى مال له بوادى القرى فيصوم يوم الإثنين ويوم الخميس، فقيل له: أتصوم فى السَّفر وقد كبرت ورفعت؟ (هزلت) فقال: : رأيت رسول الله ﷺ يصوم

يوم الإثنين ويوم الخميس؛ لأنه كما قال: «إنَّ الأعمال تُعرض يوم الإثنين ويوم الخميس». [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٥٠].

***

وإذا كانت هذه الإفريقية السوداء قد رعت نبينا ﷺ طفلاً واعتنت به شابّا وآمنت به رسولاً، وأنجبت للإسلام أبطالاً، فإن بركة (أم أيمن) لم تكن هى الإفريقية الوحيدة فى بواكير الإسلام، ولنخصِّص بعض السطور لسُميَّة الشهيرة وابنها عمار بن ياسر.

وعمّار بن ياسر (حليف بنى مخزوم) قحطانى (من اليمن). كان أبوه ياسر قد قدم مكة مع أخوين له من اليمن يطلبون أخًا لهم فرجع الأخوان وبقى ياسر، وزوَّجه حلفاؤه أمَةً لهم يقال لها سُميّة بنت خياط، ولما جاء الإسلام أسلم ياسر وابنه عمّار وزوجته سمية.

وقد جَنَحَ عمّار فى لونه وملامحه إلى أمه فقد كان آدم طويلاً أشْهل العينين، بعيد ما بين المنكبين. أى أنَّه كان إفريقى الملامح والسمات.

قال عمّار بن ياسر: لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله ﷺ فيها، فقلت له: ما تريد؟ قال لى: ما تريد أنت؟ فقلتُ: أردتُ أن أدخل على محمد ﷺ فأسمع كلامه. قال: وأنا أريد ذلك. فدخلنا فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، ثم مكثنا يومنا على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مُسْتخفون. [الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢١٨].

وأخذ المشركون عمَّار بن ياسر فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ: (قال فيه قولاً سيئًا)، وذكر آلهة المشركين بخير، فلما أتى عمار رسول الله ﷺ: قال له: «ما وراءك؟» قال عمّار: شرّ يا رسول الله ما تُركت حتى نلتُ منك وذكرتُ آلهتهم بخير قال: «فكيف تجد قلبك؟» قال عمار: «مَطمئن بالإيمان» ـ قال النبى ﷺ: «إنْ عادوا فَعُد». [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٠].

وأول من بنى مسجدًا فى بيته يُصلّى فيه عمار بن ياسر. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٠].

وكان عمّار ممن هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٠].

وشهد عمار المشاهد كلها (الغزوات كلها) مع رسول الله ﷺ. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٠]

فقال النبى ﷺ لعمار بن ياسر أثناء بناء المسجد النبوى بعد أن وجده مجتهداً فى العمل إذ كان يحمل لَبِنَتَيْن لَبِنَتَيْن لا لَبِنَةً واحدة: « ويحك ابن سميّة تقتلك الفئة الباغية، وراح النبى يمسَح عَنَ رأسه الترَاب». [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٢].

وفى يوم اليمامة وقف عمّار على صخرة وراح يصيح: يا معشر المسلمين، أمنَ الجنَّة تفرّون؟ أنا عمار بن ياسر هلموا إلىَّ، يقول الراوى وأنا أنظر إلى أذنه قد قُطعت فما تذبذب وهو يُقاتل أشد قتال [جـ٢، ص٢٢٤].

وفى عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ تولَّى عمار إمارة الكوفة، فأرسل عمر إلى أهل الكوفة خطاباً يقول فيه: أمَّا بعد، فإنى بعثت إليكم عمَّار بن ياسر أميراً، وابن مسعود معلِّمًا ووزيراً، وقد جعلتُ ابن مسعود على بيت مالكم، وإنهما لمن النُّجباء من أصحاب محمد من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما. وقد آثرتُكم بابن أم عبْد على نفسى، وبعثتُ عثمان بن حنيف على السَّواد، ورزقتكم كل يوم شاةً فأجعلُ شطرها وبطنها لعمَّار والشطر الباقى بين هؤلاء الثلاثة. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٤].

كان عمّار يقرأ كل يوم جمعة على المنبر سورة يس [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٤] واشترى عمار قثاء وهو أمير على الكوفة فاستزاد حَبْلاً فأبى بائع القثاء، فقسمه قسمين وحمله على ظهره. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٤].

يقول الرواة: إنه كان آدم (أسود) طويل القامة. [الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٢٥] وقُتل عمار وهو ابن أربعة وتسعين. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٧].

كان عمار رجلاً آدم طُوالاً، أشهل العينين، بعيد ما بين المنكبين، وكان لا يُغيِّر شيبه (لا يصبغ شعره). [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٣٠] والكلمة آدم تعنى شديد السواد، أما أشْهل فتعنى أنَّ فى عينيه شيئًا من الحمرة [المعجم الوجيز/ مجمع اللغة العربية/ المادتان: (أدم) و (شهل)].

وكان بلال بن رباح، مولى أبى بكر، ويُكنّى أبا عبد الله وكان من مولَّدى السّراه، واسم أمه حمامة، وكانت لبعض بنى جمح. يقال إن النبى ﷺ قال: بلال سابق الحبشة. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٠٦] وكان من المستضعفين فى مكَّة وكان يعذَّب بسبب إسلامه ليرجع عن دينه فأبى، وكان أميّة بن خلف هو القائم على تعذيبه.

وكان بلال إذا اشتدّ عليه العذاب قال: أحَدٌ أحَد.

فيقولون له: قل كما نقول، فيرد: إنّ لسانى لا يُحسنه.

يقولون: ربك اللات والعزَّى.

فيرد بلال: أحَد أحَد.

فاشتراه أبوبكر وأعتقه.

وكان عمر بن الخطاب يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيِّدنا (يعنى بلالاً).

ولمّا تُوفِّى رسول الله ﷺ جاء بلال إلى أبى بكر الصِّديق فقال له: يا خليفة رسول الله إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أفضل عمل المؤمن الجهاد فى سبيل الله». فقال أبو بكر: «فما تشاء يا بلال؟». قال: «أردتُ أن أرابط (أتفرغ للجهاد) فى سبيل الله». فقال أبو بكر: «أنشُدُك الله يا بلال وحُرمتى وحقّى فقد كبرتُ وضعفتُ واقترب أجلى» (والمعنى أنه يرجوه المكوث معه). فأقام بلال مع أبى بكر حتى توفّى أبو بكر. جاء بلال إلى عمر فقال مثل ما قال لأبى بكر، فقال له عمر مثل ما قال أبو بكر، فأبى بلال عليه فقال له عمر: فإلى من ترى أجعل النداء؟ (أى الأذان). فقال بلال: إلى سعد فإنه قد أذّن لرسول الله، فدعا عمر سعداً فجعل الأذان إليه وإلى عقبه من بعده.

وفى رواية أخرى أنه لما تُوفّى رسول الله ﷺ أذّن بلال ورسول الله ﷺ لم يُقبر، فكان إذا قال أشهد أنّ محمداً رسول الله انتحب الناس فى المسجد. فلما دُفن رسول الله ﷺ، قال له أبو بكر أذّن، فقال: إنْ كنتَ إنما أعتقتنى لأن أكون معك فسبيل ذلك (أى لا بأس أكون لك تبعًا)، وإن كنت أعتقتنى للّه فخلّنى ومن أعتقتنى له (أى لله). قال أبو بكر: ما أعتقتك إلا للّه. قال بلال: فإنى لا أؤذّن لأحدٍ بعد رسول الله

ﷺ فوافق أبو بكر قائلاً: ذاك لك. فأقام بلال ـ رضى الله عنه ـ حتى خرجت بعوث الشام فسار حتى انتهى إليها. وفى الشام مات بلال. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٠٧ ـ ٢١٠] وخطب بلال وأخوه إلى أهل بيت من اليمن فقال: أنا بلال وهذا أخى، عبدان من الحبشة كنّا ضالين فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله، إنْ تُنكحونا فالحمد لله، وإن تمنعونا فاللهُ أكبر. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢١٠].

وجاء بنو أبى البُكير إلى رسول الله ﷺ فقالوا: زوّج أختنا فلانًا (وسمّوا شخصًا)، فقال النبى: أين أنتم عن بلال؟ فانصرفوا وعادوا فكرروا الطلب وكرّر النبى الإجابة نفسها، وفى المرة الثالثة قال لهم: «أين أنتم من بلال؟ أين أنتم من رجل من أهل الجنّة؟» فوافقوا على تزويجه. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢١١] وكان بلال رجلاً آدمَ شديد الأدمة، نحيفًا طوالاً، أجْنَأ، له شعر كثير، خفيف العارضين، به شمط كثير لا يغيَّر [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢١٢] وهذه الصفات تنطبق على الحبشى النمطى فهو أسود طويل كثيف الشعر. أما كلمة (أجنأ) فتعنى أنه به شىء من الانحناء، وكان لا يغيِّر (أى لا يصبغ شعره)، ويوصف الرجل بأنه أشمط إذا اختلط سواد شعره ببياض.

ومن الأحباش الذين كان لهم دور مهم حول النبى ﷺ صالح شُقران، غلام رسول الله ﷺ، وكان عبدًا حبشيًا. شهد بدرًا وهو مملوك فاستعمله الرسول ﷺ على الأسرى، ورغم أنه كان مملوكًا (لم يُعتق) فقد كافأه النبى ﷺ عوضًا عن نصيبه من الغنائم. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٧٥ ـ ٧٦].

وكان صالح فيمن حضر غُسْل رسول الله مع أهل بيته. وكان الرسول ﷺ قد أوصى له قبل وفاته.

وهناك أيضًا سلمى القابلة مولاة النبى ﷺ وهى امرأة أبى رافع مولى رسول الله ﷺ وأم أولاده، وهى التى كانت تُقبِّل (أى تقوم بعمل القابلة أو المولدة) لخديجة بنت خويلد، كما أنَّ مارية القبطية ولدت إبراهيم ابن النبى ﷺ على يديها فأخبرت زوجها (أبا رافع) فزفَّ البشرى للنبى ﷺ [الطبقات الكبرى، جـ٦، ص١٦٩].

ولا شك أنَّ هذه البيئة الإفريقية القريبة من رسول الله ﷺ قد تركت بعض الأثر من حيث نقل بعض العادات الإفريقية التى لا تتعارض مع جوهر الإسلام. لنقرأ هذا الخبر: «تنازع على وجعفر وزيد بن حارثة فى أمر ما حتى ارتفعت أصواتهم، فأيقظوا النبىَّ من نومه ليقضى بينهم فقضى لجعفر بن أبىِّ طالب، فسُرّ جعفر «فقام وحَجَل حول النبى ﷺ أى دار حوله» فقال النبى ﷺ: «ما هذا؟» قال جعفر: «شىء رأيت الحبشة يصنعونه بملوكهم» ومعروف أن جعفر بن أبى طالب كان قد هاجر إلى الحبشة ولم يعد إلا سنة ٧ هـ، أى بعد هجرة النبى وصحبه للمدينة بفترة طويلة». [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٢٥]

وفى هذا السياق أيضًا نذكر أنه ليس أدلَّ على عالمية البيئة المحيطة بالنبى ﷺ أعراقًا وديانات من أن النبى ﷺ عندما توفّاه الله أنكر عمر بن الخطاب على القائلين بموت النبى ﷺ، مقالتهم، بل هدَّدهم، فهل حقيقة لم يكن عمر القريب جدّا من رسول الله مكانًا ومكانةً ونسبًا، يعرف أنَّ النبى مات بالمعنى المادى للكلمة أو لنستخدم تعبيرًا معاصرًا لنقول بالمعنى البيولوچى للكلمة. كلا، لقد كان عمر يعرف أنّه مات، فقد عاين مرضه، وشهد صلاة أبى بكر بالناس، وسمع قول الناس: إن النبى قد (ثَقُل) أى اشتد عليه المرض. لم يكن عمر إذن يجهل كل هذا، وإنما كان يقصد بإنكاره موت النبى ﷺ إنكاره أنه لن يعود أو لن يرجع بعد موته لإكمال مهمته، وفكرة الرَّجعة كانت فكرة تتردَّد بين المسيحيين واليهود، وكان منهم كما رأينا أعداد كبيرة فى شبه الجزيرة العربية. من أين أتينا بهذا التحليل غير المتداول؟ إننا لم نتعدّ السيرة النبوية لابن هشام: «لَمَّا توفّى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب، فقال: إنَّ رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد تُوفّى، وإنّ رسول الله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران»، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم... والله ليرجعن رسول الله ﷺ ...». [ابن هشام،جـ ٦، ص٧٥] لكن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أعاد الأمور إلى نصابها.

يهمنا بعرض هذه الواقعة أن نؤكّد على أننا كنّا إزاء مجتمع تمور فيه الأفكار المسيحية واليهودية وغيرها، ولم نكن إزاء مجتمع مُغلق مقتصر على من تحولوا للإسلام من الوثنية الخاصة.

لقد كان مجتمع صحابة رسول الله ـ إذن ـ مجتمعًا عالميًا بكل معانى الكلمة تتردد فيه أفكار من مختلف الديانات ومن مختلف الحضارات . . . أفكار حسمها الإسلام، فكان هو الاختيار الأصح والاختيار الأعظم والاختيار الأبقى .

* * *

نكتفى بالنماذج التى ذكرناها من الصحابة الإفريقيين المحيطين بالنبى، وإن كانت هناك نماذج أخرى كثيرة، لننتقل الآن إلى الأفارقة البيض .

بعث المقوقس صاحب الإسكندرية إلى النبى فى سنة ٧ هـ، مارية وأختها سيرين ومعهما الخَصى مابور القبطى وهو شيخ كبير كان أخًا لمارية، فصحبهم حاطب بن أبى بلتعة للنبى، وأسلمت مارية وأختها على يد حاطب الذى شرح لهما الإسلام، أما مابور فلم يُسلم إلاَّ فى وقت لاحق، لكن فى عهد الرسول ﷺ أيضًا وليس بعد وفاته . [الطبقات الكبرى، جـ٦، ص١٥٨ ـ١٥٩] وقد كان النبى ﷺ معجبًا بمارية؛ لدخولها فى الإسلام فأنزلها فى العالية (اسم موضع) وتُسمَّى الآن مَشْربة أم إبراهيم . وضَرَبَ عليها الحجاب وكانت نسوة النبى ﷺ يَغَرْنَ منها لجمالها وكثرة مكوث النبى عندها . [الطبقات الكبرى، جـ٦، ص١٦٠ ـ ١٦١] أما سيرين أخت مارية فزُوِّجت لشاعر الرسول ﷺ حسَّان بن ثابت . [الطبقات الكبرى، جـ٦، ص ١٦١] . وتُوفيت مارية فى المحرم سنة ١٦هـ فصلَّى عليها عمر بن الخطاب ودفنها فى البقيع . [الطبقات الكبرى، جـ٦، ص١٦٢] .

ولا ندرى لماذا أغفلت كتب التراجم ذكر تفاصيل عن مينا النجار القبطى الذى أشار إليه ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق والذى ساعد فى ترميم الكعبة وأعاد بناءها ووصفه عرب مكة بأنَّه نجار« رفيق » .

* * *

وثمة عرْق بشرى آخر كان محيطًا بالنبى ﷺ إنّه العرْق الفارسى، الذى لعب دورًا مهمًا فى نشر الإسلام، بل والقضاء على حركة المرتدين فى عهد النبى ﷺ، كما سنبيِّن فى القسم الأول من هذا الكتاب . لقد كان منهم أبو كبشة مولى رسول الله ﷺ، واسمه سُليم من مولَّدى أرض دوس . وشهد أبو كبشة مع النبى بدرًا وأحدًا

والمشاهد كلها، وتُوفى فى أول يوم استُخلف فيه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أى فى سنة ١٣هـ. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص١٠٥].

وسالم مولى أبى حذيفة وهو سالم بن معقل من أهل اصْطَخْر، وكان مولى لامرأة أنصارية. تبنَّاه أبو حذيفة بعد أن تزوج من هذه المرأة، وزوّجه أبو حذيفة بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة. قُتل سالم يوم اليمامة. وكان يُقال «سالم من الصالحين» وكان يؤم المهاجرين فى مكة لأنّه كان أقرأهم للقرآن. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص١٠١ ـ١٠٢].

هذا بالإضافة طبعًا إلى الصحابى الشهير سلمان الفارسى، الذى خصَّصنا له الباب الأول كله من هذا الكتاب؛ لأنَّه نموذج فريد يبين لنا أسباب التحول للإسلام، ولأنه كان مجوسيًا بل ذا رتبة كهنوتية فيها، وتحول للمسيحية بل كان راهبًا، وعايش اليهود ودرس توراتهم، وفى النهاية دخل الإسلام مخلِّفًا كلَّ هذا وراءه.

***

فإذا ما انتقلنا إلى عرق آخر من أعراق البشر وجدنا الروم أو إن شئتَ فقل وجدنا الأوروبيين. لدينَا مثالان وهما ليسا المثالين الوحيدين: الأزرق الرومى، وصهيب الرومى.

كان الأزرق غلامًا للحارث بن كلدة الثقفى، وقد تزوَّج سمية أم عمار بن ياسر، والأزرق الرومى هو ممن خرج مع عبيد أهل الطائف يوم حاصرها النبى ﷺ وفيهم أبو بكْرة فأعتقهم رسول الله ﷺ فولدت سميَّة للأزرق سلمة بن الأزرق فهو أخو عمّار لأمّه، ثم ادَّعى ولد سلمة أنهم عرب من غسَّان وأنهم حُلفاء لبنى أمية. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢١٧] وادعوا أحيانًا أنهم من بنى تغلب [المصدر نفسه ص٢١٨].

توجه بنو الأزرق بعد ذلك إلى اليمن محاولة منهم للتبرؤ من نسبهم الرومى؛ إذ قال لهم أهل اليمن: أنتم لا يُغسل عنكم اسم الروم إلا أنْ تدَّعوا أنكم من غسَّان فانتموا إلى غسَّان بعد. ومن مثل هذه الأخبار نعرف لماذا ضاعت الأصول المسيحية واليهودية والعِرقية لمن دخلوا الإسلام.

أما صهيب فكان أبوه سنان أو عمّه عاملاً لكسرى على الأبلّة وكانت منازلهم بأرض الموصل. ويقال كانوا فى قرية على شط الفرات ممّا يلى الجزيرة والموصل فأغارت الروم على تلك الناحية فسبت صهيبًا وهو غلام صغير. فقال عمّه: أنشدُ الله الغلام النَّمرى دجّ وأهلى بالثَّنى (اسم قرية) فنشأ صهيب فى الروم فصار ألْكن فابتاعته قبيلة كَلب منهم، ثم وصلت به إلى مكّة فاشتراه عبد الله بن جدعان التيْمى منهم فأعتقه فأقام معه بمكة إلى أن مات ـ أى ابن جدعان ـ وبعث الله نبيّه ﷺ لما أراد الله به الكرامة والمنَّ عليه بالإسلام. هذه رواية، أما أهل صهيب ووالده فيقولون: بل هرب من الروم عندما بلغ، وقدم مكة فحالف عبد الله بن جُدعان وأقام معه. وكان صهيب رجلاً أحمر شديد الحمرة ليس بالطويل ولا بالقصير، وكان كثير شعر الرأس.

وقالوا: صهيب من العرب من النمر بن قاسط وهذه رواية ثالثة، لكن النبى ﷺ حسم كل هذا بقوله: «صهيب سابق الروم» كما غلب على صهيب اسم صهيب الرومى.

وقد لقى صهيب عمار بن ياسر عند باب الأرقم بن أبى الأرقم، فدخلا على النبى ﷺ الذى شرح لهما الإسلام فأسلما، وكان صهيب من المستضعفين الذين يُعذّبون فى مكة، فلما أراد الهجرة إلى المدينة قال له أهل مكة: أتيتنا ها هنا صَعْلوكًا حقيرًا فكَثُر مالك عندنا، وبلغتَ ما بلغت ثم تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك.

قال صهيب: أرأيتم إن تركتُ مالى، تُخْلون أنتم سبيلى؟!

قال أهل مكة: نعم.

فترك لهم ماله أجمع، فبلغ ذلك النبى فقال: «رَبِح صُهيب... رَبِح صُهيب».

وكان من المقرر أن يكون صهيب مصاحبًا لرسول الله ﷺ فى الهجرة إلى المدينة مع أبى بكر الصديق لكن الظروف حالت دون ذلك. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٠٢ ـ ٢٠٤].

وكان صهيب ـ تحوّطًا منه ـ يرفض الرواية عن النبى ﷺ أى رفض أن يكون محدِّثًا، وإنما كان يروى تفاصيل الغزوات التى شارك فيها مع النبى ﷺ.

وصهيب الرومى هو الذى أمَّ المسلمين بعد وفاة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بناء على توصية من عمر قبل مماته. وصهيب أيضًا هو الذى صلّى على عمر بعد مماته. وتوفى صهيب سنة ٣٨هـ بالمدينة وهو ابن سبعين سنة. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص ٢٠٧].

بقى أن نذكر أنَّه لم يحدث أبدًا ارتداد جماعى عن الإسلام سواء فى مطلع الألفية الأولى أو الألفية الثانية التى نعيشها الآن، بل إنه لم يحدث أبدًا وطوال مراحل التاريخ حركة ردَّة أو حركة تحوّل جماعى أو حتى شبه جماعى عن الإسلام. والحركة المشهورة التى سمّيت اصطلاحًا بحروب الردَّة بعد وفاة النبى ﷺ لم تكن أبدًا حركة ردّة بالمعنى الدينى للكلمة، فلم يشرع اليهود الذين أسلموا بالعودة لليهودية، ولم يشرع المسيحيون الذين أسلموا بالعودة للمسيحية، ولم يُعد العرب تماثيل اللاَّت والعزَّى ويعوق ونسرًا... إلخ، وإنما كانت هذه الحركة فى الأساس حركة خروج على الدولة ورغبة فى إقامة كيانات قبلية بعيدة عن الدولة الأم، كما كانت حركة لها أبعادها المالية، والأدلة واضحة تمام الوضوح على كلِّ هذا من كتب التراث التى تناولت هذه الحروب. فأبو بكر الصدِّيق يقول: «والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدّونه لرسول الله لقاتلتهم عليه». المسألة إذًا مسألة«عقالَ» وليست إيمانًا بالوحدانية وشهادة لنبى الله ﷺ بالنبوة.

بل وأكثر من هذا، لقد قال أحد هؤلاء الخارجين على الدولة (المرتدين) ساخرًا: «أنُعطى الزكاة لابن أبى قحافة ؟!» الرجل إذًا ـ جازاه الله ـ يريد أن يدفع الزكاة، لكن ليس لابن أبى قحافة وإنما لحاكم آخر من قبيلة أقوى أو من عشيرة أقوى، ربما كانت عشيرة هذا المعترض [راجع الفصل الخاص بحروب الرِّدَّة فى كتاب فتوح البلدان]. لم يَرِدْ إذًا فى أى كتاب تراثى أنَّ هؤلاء المتمردين بعد وفاة النبى ﷺ قد تركوا الإسلام وعادوا لما كانوا عليه من عقائد.

ومسيرة التاريخ تؤكد العكس تمامًا وهو التحوّل الجماعى إلى الإسلام، أو الاقتراب الجماعى من عقائده. تحوّل المغول إلى الإسلام تحولاً جماعيًا وهم فى ذروة انتصارهم، بعد أن أسقطوا بغداد ليجدوا أنفسهم وبسرعة عجيبة يتحولون للإسلام عقب أول هزيمة حاقت بهم على يد مماليك مصر.

وكانت حركة مارتن لوثر (الحركة البروتستانتية) اقترابًا فى بعض جوانبها من الإسلام. والمسيحية الأصولية الآن تقترب كثيرًا من عقائد المسلمين وإن ابتعدت عنهم سياسيًا.

والحركة الاستعمارية الأوروبية للعالم الإسلامى لم تُسفر عن ارتداد جماعى عن الإسلام ولا حتى ارتداد فردى يُعوَّل عليه ويدخل فى إحصاء حقيقى. كل ما استطاعت هذه الحركة الاستعمارية أن تفعله هى أنها هزت الحياة الاجتماعية من الداخل، وتحاول الولايات المتحدة فى هذه الألفية حَجْب العلوم البحتة والتطبيقية عن المسلمين، سواء فى بلادهم (بلاد المسلمين) أو خارج بلادهم، فهى تريد أن تَشْغلهم تمامًا بدراسة الشعر والفن والأدب، ورغم أهمية هذه المجالات لأىّ حضارة إلا أنها تُمثِّل جناحًا واحدًا للطائر، وهل يطيرُ الطائر بجناح واحد؟ كما تريد أن تشغلهم بالجوانب الطقسية فى الإسلام دون مراعاة روحه الحافزة على الكد لتطوير العلوم والسَّعى فى طلب الرزق والاستقلال الاقتصادى والالتزام بروح الفضائل.

وهل للشريعة ـ أى شريعة ـ قيمة إذا نُزعت منها روحها؟!.

كان الخطاب الدينى الذى يريد الحثَّ على تقديم الزكاة واعتبار مانعها كافرًا، وراء المبالغة فى جُرْم هؤلاء الذين خرجوا على الدولة بعد وفاة النبى ﷺ إنّه جُرْم حقيقى، لكن المبالغة وإغفال التفاصيل لهما مضارهما أيضًا فالتناول المتوازن هو المطلوب دائمًا.

وهذا الكتاب الذى بين يدى القارئ وإن كان يتناول صحابة رسول الله ﷺ ذوى الأصول المسيحية واليهودية، وذوى الأصول العرقية الفارسية والرومية (الأوروبية) والإفريقية ليثبت عالمية الإسلام منذ بدايته الباكرة، **إلاَّ أنَّه أيضًا دراسة جادة فى إستراتيجية الدَّعوة بتركيزه على العمليات الفكرية والإيمانية للتحول من اليهودية إلى الإسلام وللتحول من المسيحية إلى الإسلام**، كما ركزنا على أنَّ الإسلام هو دين المستقبل باعتباره يضُم بين جنبيه فحوى الرسالتين السابقتين عليه.

وقد قسمت هذا الكتاب إلى قسمين أو بابين، كرَّست الأول منهما لسلمان الفارسى ذى الحياة الخصبة؛ إذ اعتنق سلمان كل الديانات وعايشها وخبرها واختار منها ـ فى نهاية المطاف ـ الدين الإسلامى، مما أتاح لنا فرصة المقارنة والتحليل.

أما القسم الثانى أو الباب الثانى فجعلته للصحابة ذوى الأصول اليهودية وهم كثيرون، واعتمدنا مصادر متأخرة زمنًا كتبها يهود أسلموا ودعوا اليهود إلى التحول الجماعى للإسلام، **لتوضيح العملية الفكرية والإيمانية الكامنة وراء التحوّل إلى الإسلام.**

وأشرنا إشارات عابرة للظروف الاجتماعية والسياسية المؤدية للتحوّل من دين إلى دين.

أمّا هذه المقدمة العامة التى يُطالعها القارئ الآن، فكان من مهامها سدّ الثغرات فى هذين البابين؛ إذ أشرتُ فيها بشىء من التفصيل إلى الأعراق (الأجناس) المختلفة للصحابة الذين أحاطوا بالداعى الرسول ﷺ منذ بداية الدعوة لتوضيح عالمية الإسلام، فأشرنا لصحابة أفارقة وصحابة روم.. إلخ.

وقد أعقبنا كلّ فصل من فصول الباب الأول بتسابيح وابتهالات مستوحاة من الأفكار التى تناولها كل فصل من هذه الفصول، وتلك التسابيح والابتهالات موجّهة فى الأساس للذين لا يريدون على دينهم برهانًا أو دليلا عقليّا وإنما شفّهم الوجد حبّا فى الإسلام ورسوله ﷺ فأغناهم عمّا سواهما.

كما أعقبنا ذلك ببحوث موجزة كتبها علماء اللاهوت فى الأديان المختلفة حتى لا تكون المصطلحات الدينية خواء أو مجرَّد ألفاظ خالية من المضمون.

وقد تعمّدت أن تكون هذه المباحث الموجزة التى تمّ إلحاقها بكل فصل من فصول الباب الأول بأقلام علماء لاهوت من أصحاب الديانات التى يتحدثون عنها، وذلك فيما عدا الزرادشتية (المجوسية) فقد اعتمدنا لها مبحثًا كتبه المستشرق الأشهر زينر، ومما يذكر أنَّ المجوسية فيما يعتبرها كثيرون من المسيحيين قدَّمت البشارات بقدوم المسيح عليه السلام. لم يكن معقولاً أن نقول: إن سلمان كان مجوسيّا ثم مسيحيّا دون أن نعرف شيئًا عن مجوسيته ومسيحيته.

وننبه القارئ إلى أنَّ أرقام الصفحات التى أشرنا إليها بالنسبة للسيرة النبوية لابن هشام هى الخاصة بطبعة دار الجيل البيروتية. أما بالنسبة للطبقات الكبرى لابن سعد فطبعة دار الفكر البيروتية.

وكان من رأى الأخ الأستاذ عادل المعلّم ـ وهو ناشر مثقف يُوضع رأيه موضع الحسبان ـ ألا يكون الكتاب كبير الحجم جدّا، حتى يكون مقروءًا وفى متناول كلّ القراء، فوجدتُ هذا أمراً معقولاً؛ لذا يجد كل القراء أننى عالجتُ مادته بإيجاز غير مُخلٍّ، وبأسلوب مقروء مفهوم.

وعلى الله قصد السبيل.

د.عبدالرحمن عبد الله الشيخ